بما أنعم عليه في دار الدنيا، وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية»[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الإسراء مكية

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾.

﴿سبحان﴾ علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزل سبحان منزلة الفعل فسد مسدّه ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله و **﴿أسرى﴾** وسرى لغتان و **﴿ليلاً﴾** نصب على الظرف.

فإن قُلْتَ[2]: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى نكر الليل؟ **قُلْتُ**: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير: تقليل مدّة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أنّ التنكير فيه قد دلّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله، وحذيفة: من الليل أي: بعض الليل كقوله: **﴿ومن الليل فتهجد به نافلة﴾**[3] يعني: الأمر بالقيام في بعض الليل، واختلف في المكان الذي أسرى منه، فقيل: هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر، وروي عن النبي ﷺ: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل عليه السلام بالبراق[4]»، وقيل: أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب»[5]، والمراد بالمسجد الحرام: الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس: الحرم كله مسجد، وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به، ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانىء، وقال: «مثل لي النبيون فصليت بهم» وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أمّ هانئ بثوبه فقال: «مالك؟» قالت: أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: «وإن كذبوني» فخرج فجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلم، فحدثهم، فمن بين مصفق، وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. فسمي الصديق، وفيهم من سافر إلى ما ثمّ، فاستنعتوه المسجد، فجلى له بيت المقدس، فطفق ينظر إليه وينعته لهم، فقالوا: أمّا النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ فأخبرهم بعدد جمالها، وأحوالها، وقال: «تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أو ورق»، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية، فقال قائل منهم: هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين، وقد عرج به إلى السماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس، وأخبر قريشًا أيضًا بما رأى في السماء من العجائب، وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور، وسدرة المنتهى، واختلفوا في وقت الإسراء، فقيل كان قبل الهجرة بسنة، وعن أنس والحسن: أنه كان قبل البعث، واختلف في أنه كان في اليقظة أم في المنام. فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولكن عرج بروحه[6]. وعن معاوية: إنما عرج بروحه، وعن الحسن: كان في المنام رؤيا رآها، وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك. والمسجد الأقصى: بيت المقدس لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد **﴿باركنا حوله﴾** يريد بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحي وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة. وقرأ الحسن: ليريه بالياء ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم فقيل: أسرى، ثم باركنا، ثم ليريه على قراءة الحسن، ثم من آياتنا، ثم إنه هو، وهي طريقة الالتفات التي هي من طرق البلاغة **﴿إنه هو السميع﴾** لأقوال محمد **﴿البصير﴾** بأفعاله العالم بتهذبها وخلوصها فيكرمه ويقربه على حسب ذلك.

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا

---

(1) رواه الثعلبي وابن مردويه.

(2) قال أحمد: وقد قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا، كقوله بأملك بقطع من الليل: **﴿فأسر﴾**، كقوله تعالى: **﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾** فالظاهر، والله أعلم، أنّ الغرض من نكر الليل، وإن كان الإسراء يفيده، تصوير السير بصورته في ذهن السامع، وكان الإسراء لما دلّ على أمرين، أحدهما: السير، والآخر: كونه ليلاً، أريد إفراد أحدهما بالنكر، تثبيتاً في نفس المخاطب، وتنبيهاً على أنه مقصور بالنكر، ونظيره في إفراد أحد ما دلّ عليه اللفظ المتقدم، مضموماً لغيره قوله تعالى: **﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد﴾** فالاسم الحامل للتثنية دل عليها وعلى الجنسية، وكذلك المفرد، فأريد التنبيه؛ لأنّ أحد المعنيين، وهو: = التثنية، مراد مقصود، وكذلك أريد الإيقاظ؛ لأنّ الوحدانية هي المقصودة في قوله: **﴿إنما هو إله واحد﴾** ولو اقتصر على قوله: **﴿إنما هو إله﴾** لأوهم أنّ المهم إثبات الإلهية له، والغرض من الكلام، ليس إلا الإثبات للوحدانية، والله أعلم.

(3) سورة الإسراء، الآية: 79.

(4) رواه البخاري في صحيحه، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، (الحديث رقم: 3207)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: الإسراء برسول الله ﷺ (الحديث رقم: 415).

(5) رواه الطبراني والنسائي في سننه الكبرى.

(6) رواه ابن إسحاق في السيرة، (الزيلعي 2/259).

شَكُورًا ﴿٣﴾.

﴿ألا تتخذوا﴾ قرئ: بالياء على لئلا يتخذوا، وبالتاء على أي: لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن افعل كذا ﴿وكيلاً﴾ ربًا تكلون إليه أموركم ﴿ذرية من حملنا﴾ نصب على الاختصاص، وقيل: على النداء فيمن قرأ لا تتخذوا بالتاء على النهي يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا من دوني وكيلاً يا ذرية من حملنا ﴿مع نوح﴾ وقد يجعل وكيلاً ذرية من حملنا مفعولي تتخذوا أي: لا تجعلوهم أربابًا كقوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا﴾[1] ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام، وقرئ: ذرية من حملنا بالرفع بدلاً من واو تتخذوا، وقرأ زيد بن ثابت: ذرية بكسر الذال، وروي عنه: أنه قد فسرها بولد الولد ذكرهم الله النعمة في إنجاء آبائهم من الغرق ﴿إنه﴾ إن نوحًا ﴿كان عبدًا شكورًا﴾ قيل: كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء أجاعني، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقاني ولو شاء اظمأني، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كساني ولو شاء أعراني، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذاني ولو شاء أحفاني، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عني أذاه في عافية ولو شاء حبسه، وروي أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من أمن به فإن وجده محتاجًا آثره به.

فإن قُلْتَ: قوله: ﴿إنه كان عبدًا شكورًا﴾ ما وجه ملاءمته لما قبله؟ **قُلْتُ:** كأنه قيل: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ولا تشركوا بي؛ لأنّ نوحًا عليه السلام كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه فاجعلوه أسوتكم كما جعله آباؤكم أسوتهم، ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح فهم متصلون به فاستأهلوا لذلك الاختصاص، ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد.

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ وأوحينا إليهم وحيًا مقضيًا أي: مقطوعًا مبتوتًا بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة ويعلون أي: يتعظمون ويبغون ﴿في الكتاب﴾ في التوراة و﴿لتفسدنّ﴾ جواب قسم محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم فيكون لتفسدن جوابًا له كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن، وقرئ: لتفسدنّ على البناء للمفعول، ولتفسدن بفتح التاء من فسد ﴿مرتين﴾ أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم ﴿عبادًا لنا﴾ وقرئ: عبيدًا لنا وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده، وقيل بختنصر، وعن ابن عباس: جالوت، قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفًا.

فإن قُلْتَ[2]: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك ويسلطهم عليه؟ **قُلْتُ:** معناه خلينا بينهم وبين ما فعلوا ولم تمنعهم، على أنّ الله عزّ وعلا أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه فهو كقوله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون﴾[3] وكقول الداعي: وخالف بين كلمهم، وأسند الجوس: وهو التردّد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة فحاسوا بالحاء، وقرئ: فجوّسوا وخلل الديار.

فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿وعد أولاهما﴾؟ **قُلْتُ:** معناه وعد عقاب أولاهما ﴿وكان وعدًا مفعولاً﴾ يعني: وكان وعد العقاب وعدًا لا بد أن يفعل.

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾.

﴿ثم رددنا لكم الكرة﴾ أي: الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلوّ، وقيل: هي قتل بختنصر، واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، فقيل: هي قتل داود جالوت ﴿أكثر نفيرًا﴾ مما كنتم، والنفير من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جميع نفر كالعبيد والمعين.

إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾.

أي: الإحسان والإساءة كلاهما مختص بأنفسكم لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم، وعن علي رضي الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة ﴿الآخرة﴾ بعثناهم ﴿ليسوؤا وجوهكم﴾ حذف لدلالة ذكره أولاً عليه، ومعنى ليسوؤا وجوهكم: ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها كقوله: ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾[4] وقرئ: ليسوم، والضمير لله تعالى أو للوعد أو للبعث، ولنسوء بالنون، وفي قراءة علي:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 80.

(2) قال أحمد: هذا السؤال إنما يتوجه على قدري يوجب على الله تعالى، بزعمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، وأمّا السني إذا سئل هذا السؤال، أجاب عنه بقوله: لا يسأل عما يفعل، والله الموفق.

(3) سورة الأنعام، الآية: 129.

(4) سورة الملك، الآية: 27.

لنسوأن وليسوأن، وقرئ: لنسوأن بالنون الخفيفة. واللام في ﴿ليدخلوا﴾ على هذا متعلق بمحذوف وهو وبعثناهم ليدخلوا ولنسوأن جواب إذا جاء ﴿ما علوا﴾ مفعول ليتبروا أي: ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه، أو بمعنى مدّه علوهم.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾.

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصي ﴿وإن عدتم﴾ مرة ثالثة ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، وقد عادوا فأعاد الله إليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم، وعن الحسن عادوا فبعث الله محمدًا فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحيّ من العرب فهم منهم في عذاب إلى يوم القيامة ﴿حصيرًا﴾ محبسًا يقال للسجن: محصر وحصير، وعن الحسن: بساطًا كما يبسط الحصير المرمول.

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾.

﴿للتي هي أقوم﴾ للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات نوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه. وقرئ: ويبشر بالتخفيف.

فإن قُلْتَ: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة **قُلْتُ:** كان الناس حينئذ: إما مؤمن تقي، وإما مشرك، وإنما حث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.

فإن قُلْتَ: علام عطف ﴿وأن الذين لا يؤمنون﴾؟ **قُلْتُ:** على أن لهم أجرًا كبيرًا على معنى أنه بشّر المؤمنين ببشارتين اثنتين، بثوابهم، وبعقاب أعدائهم، ويجوز أن يراد ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون.

وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾.

أي: ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله كما يدعوه لهم بالخير كقوله: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير﴾[1] ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله لا يتأنى فيه تأنى المتبصر، وعن النبي ﷺ: «أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرًا فأقبل يئن بالليل فقالت له: مالك تئن؟ فشكا ألم القدّ فأرخت من كتافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم بشأنه فقال ﷺ: اللهم اقطع يديها. فرفعت سودة يديها تتوقع الإجابة وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: «إني سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأني بشر أغضب كما يغضب البشر، فلترد سودة يديها»[2]. ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به كما يدعو بالخير إذا مسته الشدّة، وكان الإنسان عجولاً يعني أنّ العذاب آتية لا محالة فما هذا الاستعجال، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو النضر بن الحرث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾[3] الآية فأجيب له فضربت عنقه صبرًا.

وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾.

فيه وجهان: أحدهما: أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين كإضافة العدد إلى المعدود أي: فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة، والثاني: أن يراد وجعلنا نيري الليل والنهار آيتين يريد الشمس والقمر فمحونا آية الليل أي: جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلمًا لا يستبان فيه شيء كما لا يستبان ما في اللوح الممحو، وجعلنا النهار مبصرًا أي: تبصر فيه الأشياء وتستبان، أو فمحونا آية الليل التي هي القمر حيث لم يخلق لها شعاعًا كشعاع الشمس فترى به الأشياء رؤية بينة، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر في ضوئها كل شيء ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استباغة أعمالكم والتصرف في معايشكم ﴿ولتعلموا﴾ باختلاف الجديدين ﴿عدد السنين﴾ جنس ﴿والحساب﴾ وما تحتاجون إليه منه، ولولا ذلك لما علم أحد حسبان الأوقات ولتعطلت الأمور ﴿وكل شيء﴾ مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم ﴿فصلناه﴾ بيناه بيانًا غير ملتبس فأزحنا عللكم وما تركنا لك حجة علينا.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾.

﴿طائره﴾ عمله وقد حققنا القول فيه في سورة النمل، وعن ابن عيينة: هو من قولك: طار له سهم إذا خرج يعني: ألزمناه ما طار من عمله، والمعنى: أنّ عمله لازم له لزوم القلادة، أو الغل لا يفك عنه، ومنه مثل العرب: تقلدها طوق الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب، وهذا ربقة في رقبته، وعن الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك. وقرئ: في عنقه بسكون النون. وقرئ: نخرج بالنون، ويخرج بالياء، والضمير لله عزّ وجلّ، ويخرج

---

(1) سورة يونس، الآية: 11.

(2) قال الزيلعي: غريب من حديث سودة، وأورد بسنده حديث عن عائشة ذكره ابن الطلاية 2/260. =

(3) سورة الأنفال، الآية: 32. =

على البناء للمفعول، ويخرج من خرج، والضمير للطائر أي: يخرج الطائر كتابًا، وانتصاب كتابًا على الحال. وقرئ: يلقاه بالتشديد مبنيًا للمفعول و ﴿يلقاه منشورًا﴾ صفتان للكتاب، أو يلقاه صفة، ومنشورًا حال من يلقاه.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾.

﴿اقرأ﴾ على إرادة القول، وعن قتادة: يقرأ ذلك اليوم ما لم يكن في الدنيا قارئًا و ﴿بنفسك﴾ فاعل كفى و ﴿حسيبًا﴾ تمييز وهو بمعنى: حاسب، كضريب القداح بمعنى: ضاربها، وصريم بمعنى: صارم، نكرهما سيبويه. وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا، ويجوز أن يكون بمعنى: الكافي وضع موضع الشهيد فعدّي بعلي؛ لأنّ الشاهد يكفي المدّعي ما أهمه.

فإن قُلْتَ: لم نكر ﴿حسيبًا﴾؟ **قُلْتُ:** لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير؛ لأنّ الغالب أنّ هذه الأمور يتولاها الرجال فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيبًا، ويجوز أن يتأوّل النفس بالشخص كما يقال: ثلاثة أنفس. وكان الحسن إذا قرأها قال: يا ابن آدم أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك. أي: كل نفس حاملة وزرًا فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى ﴿وما كنا معذبين﴾[1] وما صحّ مناصحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قومًا إلا بعد أن ﴿نبعث﴾ إليهم ﴿رسولاً﴾ فنلزمهم الحجة.

فإن قُلْتَ: الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل؛ لأنّ معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم وكفرهم لذلك لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان؟ **قُلْتُ:** بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولاً ينبهنا على النظر في أدلة العقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾.

﴿وإذا أردنا﴾ وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ﴿ففسقوا﴾ أي: أمرناهم بالفسق ففعلوا والأمر مجاز[2]؛ لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازًا، ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صبًا فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبرّ، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو: كلمة العذاب فدمرهم.

فإن قُلْتَ: هلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا؟ **قُلْتُ:** لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه؟ وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه، وهو كلام مستفيض يقال: أمرته فقام، وأمرته فقرأ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام وقراءة، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب، ولا يلزم على هذا قولهم أمرته فعصاني، أو فلم يتمثل أمري؛ لأنّ ذلك مناف للأمر مناقض له، ولا يكون ما يناقض الأمر مأمورًا به، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوي؛ لأنّ من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوي لأمره مأمورًا به وكأنه يقول: كان مني أمر فلم تكن منه طاعة، كما أن من يقول: فلان يعطي ويمنع، ويأمر وينهى، غير قاصد إلى مفعول.

فإن قُلْتَ: هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالقصد والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا؟ **قُلْتُ:** لا يصحّ ذلك؛ لأنّ قوله: ﴿ففسقوا﴾ يدافعه، فكأنك أظهرت شيئًا وأنت تدعي إضمار خلافه، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه، ونظير أمر شاء في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول: لو شاء لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت وقلت: قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان، أو من أهل الإساءة، فاترك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد، وقد فسر بعضهم ﴿أمرنا﴾ بكثرنا وجعل أمرته فأمر

---

(1) قال أحمد: وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدري، يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر، وإلى كثير من أحكام الله تعالى، وإن لم يبعث رسول، فيكلفه بعقله، ويرتب على ترك امتثال التكليف استيجاب العذاب، إذ العقل كاف عندهم في إيجاب المعرفة، بل في جميع الأحكام، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح العقليين، وأما السني، فلا يتوجه عليه هذا السؤال، فإنّ العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع، وبعث الأنبياء، وحينئذ يثبت الحكم، وتقوم الحجة، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم الزمخشري تحريفها، فتعتاص= عليه، وتسدّ طرق الحيل بين يديه؛ لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، نعم العقل عمدة في حصول المعرفة، لا في وجوبها، وبين الحصول والوجوب بون بعيد، والله الموفق.

(2) قال أحمد: نص حسن، إلا قوله أنهم خلوا النعم ليشكروا، فإنه فرعه على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة، والحق أنهم خولوها وأمروا بالشكر، ففسقوا وكفروا، على خلاف الأمر، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق، والله الموفق.

من باب فعلته ففعل كثيرته فثبر، وفي الحديث: «خير المال سكة مأثورة، ومهرة مأمورة» أي: كثيرة النتاج. وروي: أن رجلاً من المشركين قال لرسول الله ﷺ: إني أرى أمرك هذا حقيرًا، فقال ﷺ: «إنه سيأمر»[1] أي سيكثر وسيكبر. وقرئ*: آمرنا من أمر وأمره غيره، وأمّرنا بمعنى أمرنا، أو من أمر أمارة، وأمره الله أي: جعلناهم أمراء وسلطناهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾.

﴿كم﴾ مفعول **﴿أهلكنا﴾** و **﴿من القرون﴾** بيان لكم وتمييز له كما يميز العدد بالجنس يعني: عادًا وثمودًا وقرونًا بين ذلك كثيرًا ونبّه بقوله **﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا﴾** على أن الذنوب هي أسباب الهلكة لا غير وأنه عالم بها ومعاقب عليها.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾.

من كانت[2] العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد، فقيد الأمر تقييدين أحدهما: تقييد المعجل بمشيئته، والثاني: تقييد المعجل له بإرادته، وهكذا الحال ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأما المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو: غنى الآخرة فما يبالي أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له وأعون على مراده وقوله: **﴿لمن نريد﴾** بدل من له وهو بدل البعض من الكل؛ لأن الضمير يرجع إلى من وهو في معنى الكثرة. وقرئ*: يشاء، وقيل: الضمير لله تعالى فلا فرق إذًا بين القراءتين في المعنى، ويجوز أن يكون للعبد على أن للعبد ما يشاء من الدنيا وأن ذلك لواحد من الدهماء يريد به الله ذلك، وقيل: هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة كالمنافق، والمرائي، والمهاجر للدنيا، والمجاهدة للغنيمة، والذكر كما قال ﷺ: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[3]. **﴿مدحورًا﴾** مطرودًا من رحمة الله **﴿سعيها﴾** حقها من السعي، وكفاءها من الأعمال الصالحة. اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكورًا إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور، والسعي فيما كلف من الفعل والترك، والإيمان الصحيح الثابت، وعن بعض المتقدمين: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله، إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية. وشكر الله الثواب على الطاعة.

كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾.

﴿كلًّا﴾ كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه **﴿نمد﴾** هم نزيدهم من عطائنا ونجعل الآنف منه مددًا للسالف لا بقطعه، فنرزق المطيع والعاصي جميعًا على وجه التفضل **﴿وما كان عطاء ربك﴾** وفضله **﴿محظورًا﴾** أي: ممنوعًا لا يمنعه من عاص لعصيانه **﴿انظر﴾** بعين الاعتبار **﴿كيف﴾** جعلناهم متفاوتين في التفضل، وفي الآخرة التفاوت أكبر؛ لأنها ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، وروي: أن قومًا من الأشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه، فخرج الإذن لبلال وصهيب، فشق على أبي سفيان، فقال سهيل بن عمرو: إنما أتينا من قبلنا، إنهم دعوا ودعينا يعني: إلى الإسلام، فاسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعدّ الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ*: وأكثر تفضيلاً، وعن بعضهم: أنها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل.

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾.

﴿فتقعد﴾ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة بمعنى: صارت يعني: فتصير جامعًا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلٰهك والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكًا له.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾.

﴿وقضى ربك﴾ وأمر أمرًا مقطوعًا به **﴿ألا تعبدوا﴾** أن مفسرة ولا تعبدوا نهي أو بأن لا تعبدوا **﴿وبالوالدين إحسانًا﴾** وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحسانًا. وقرئ*: وأوصى، وعن ابن عباس

---

(1) قال الزيلعي: غريب جدًا 2/262.

(2) قال أحمد: ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى، وهي قوله تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب﴾ فادخل من المبعضة على حرث الدنيا، ونحل الطالب حرث الآخرة مراده، وزاد عليه.

(3) رواه البخاري في كتاب: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (الحديث رقم: 1)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية» (الحديث رقم: 4904).

رضي الله عنهما: ووصى، وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك، ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان؛ لأنّ المصدر لا يتقدّم عليه صلته ﴿إما﴾ هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكدا لها ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت إن لم يصح دخولها لا تقول: إن تكرمن زيدًا يكرمك، ولكن إما تكرمنه و ﴿أحدهما﴾ فاعل يبلغنّ، وهو: فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين و ﴿كلاهما﴾ عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً.

فإن قُلْتَ: لو قيل: إما يبلغان كلاهما. كان كلاهما توكيدًا لا بدلاً فمالك زعمت أنه بدل؟ **قُلْتُ:** لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيدًا للاثنين فانتظم في حكمه فوجب أن يكون مثله.

فإن قُلْتَ: ما ضرّك لو جعلته توكيدًا مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ **قُلْتُ:** لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما فحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما علم أنّ التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول ﴿أف﴾ صوت يدل على تضجر، وقرئ: أف بالحركات الثلاث منونًا وغير منون، الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة، والتشديد كثم، والضم اتباع كمنذ.

فإن قُلْتَ: ما معنى عندك؟ **قُلْتُ:** هو أن يكبرا ويعجزا وكانا كلاً على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالاً وصبرًا، وربما تولي منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق، ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول ـ لهما إذا أضجره ما يستقذر منهما، أو يستثقل من مؤنهما أف فضلاً عما يزيد عليه، ولقد بالغ سبحانه في التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده، ونظمهما في سلك القضاء بهما معًا، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضجر، مع موجبات الضجر ومقتضياته، ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في الاستطاعة ﴿ولا تنهرهما﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك، والنهي والنهر والنهم أخوات ﴿وقل لهما﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿قولاً كريمًا﴾ جميلاً كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة، وقيل: هو أن يقول: يا أبتاه يا أماه كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت مع كفره، ولا يدعوهما بأسمائهما، فإنه من الجفاء، وسوء الأدب، وعادة الدعار، قالوا: ولا بأس به في غير وجهه كما قالت عائشة رضي الله عنها: نحلني أبو بكر[1] كذا. وقرئ: جناح الذل والذل بالضم والكسر.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: ﴿جناح الذل﴾؟ **قُلْتُ:** فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى: واخفض لهما جناحك، كما قال: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾[2] فأضافه إلى الذل أو الذلّ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى: واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول، والثاني: أن تجعل لذله أو لذله لهما جناحًا خفيضًا، كما جعل لبيد للشمال: يدًا، وللقوّة: زمامًا مبالغة في التذلل.

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾.

والتواضع لهما ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما لكبرهما، وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها، وادع الله بأن يرحمهما الباقية، واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك.

فإن قُلْتَ: الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين **قُلْتُ:** وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان، وأن يدعو الله لهما بالهداية والإرشاد، ومن الناس من قال: كان الدعاء للكفار جائزًا ثم نسخ، وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت، فقال: كل ذلك واصل إليه ولا شيء أنفع له من الاستغفار، ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الأبوين، ولقد كرّر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبيّ ﷺ: «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»[3] وروي: يفعل البارّ ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة[4]، وروى سعيد بن المسيب أنّ البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل لرسول الله ﷺ: أنّ أبوي بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما؟ قال: «لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»[5]. وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله، فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا، وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي، واليوم أنا ضعيف، وهو قوي، وأنا فقير وهو غني، ويبخل عليّ بماله فبكى رسول الله ﷺ وقال: «ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى، ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك»، وشكا إليه آخر.[6] سوء خلق أمّه فقال: «لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة

---

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب: الأقضية، باب: ما لا يجوز من النحل، (الحديث رقم: 40).
(2) سورة الحجر، الآية: 88.
(3) رواه الترمذي في كتاب: «البر والصلة» باب ما جاء في الفضل في رضا الوالدين (الحديث رقم: 1899)، والحاكم في المستدرك 4/ = 152).
(4) رواه ابو نعيم في الحلية 10/216.
(5) لم يخرجه الزيلعي.
(6) أخرج نحوه الطبراني في معجمه الصغير ص 339 (الحديث رقم: 927).

أشهر» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين» قال: إنها سيئة الخلق، قال: «لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها، وأظمأت بهارها» قال: لقد جازيتها: قال: «ما فعلت»؟ قال: حججت بها على عاتقي. قال: «ما جزيتها ولو طلقة»[1] وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمّه ويقول:

إني لها مطية لا تذعر ... إذا الركاب نفرت لا تنفر

ما جملت وأرضعتني أكثر ... الله ربي نو الجلال الأكبر

تظنني جازيتها يا ابن عمر؟ قال: لا ولو زفرة واحدة[2]، وعنه عليه الصلاة والسلام: «إياكم وعقوق الوالدين، فإنّ الجنة توجد ريحها من مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارّ إزاره خيلاء، إنّ الكبرياء لله رب العالمين»[3]، وقال الفقهاء: لا يذهب بأبيه إلى البيعة وإذا بعث إليه منها ليحمله فعل، ولا يناوله الخمر ويأخذ الإناء منه إذا شربها، وعن أبي يوسف: إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أو قد. وعن حنيفة: أنه استأنن النبيّ ﷺ في قتل أبيه وهو في صف المشركين فقال: «دعه يليه غيرك»[4]. وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال: أن لا تقوم إلى خدمتهما عن كسل، وسئل بعضهم فقال: أن لا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظر شزرًا إليهما، ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن، وأن تترحم عليهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا، وتقوم بخدمة أودّائهما من بعدهما، فعن النبيّ ﷺ: «إنّ من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودّ أبيه»[5].

رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾.

﴿بما في نفوسكم﴾ بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير ﴿إن تكونوا صالحين﴾ قاصدين الصلاح والبر، ثم فرطت منكم في حال الغضب، وعند حرج الصدر، وما لا يخلو منه البشر، أو لحمية الإسلام، هنة تؤدّي إلى أذاهما ثم أنبتم إلى الله واستغفرتم منها فإنّ الله غفور ﴿للأوّابين﴾ للتوّابين، وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير، وعن سعيد بن المسيب: الأوّاب الرجل كلما أذنب بادر بالتوبة، ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها، ويندرج تحته الجاني على أبويه التائب من جنايته لوروده على أثره.

﴿وآت ذا القربى حقه﴾ وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما، وأن يؤتوا حقهم، وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين، والولد، وفقراء عاجزين عن الكسب وكان الرجل موسرًا أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة، والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب، وإن كانوا مياسير، أو لم يكونوا محارم كأبناء العمّ فحقهم صلتهم بالمودّة، والزيارة، وحسن المعاشرة، والمؤالفة على السراء والضراء، والمعاضدة ونحو ذلك ﴿والمسكين وابن السبيل﴾ يعني: وآت هؤلاء حقهم من الزكاة، وهذا دليل على أن المراد بما يؤتي ذوي القرابة من الحق هو تعهدهم بالمال، وقيل: أراد بذي القربى: أقرباء رسول الله ﷺ.

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾.

التبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على وجه الإسراف، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسعة وتنكر ذلك في أشعارها فأمر الله بالنفقة في وجوهها مما يقرب منه ويزلف، وعن عبد الله: هو إنفاق المال في غير حقه، وعن مجاهد: لو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيرًا، وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقال له صاحبه: لا خير في السرف فقال: لا سرف في الخير، وعن عبد الله بن عمرو: مرّ رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد»؟ قال: أوفي الوضوء سرف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[6] ﴿إخوان الشياطين﴾ أمثالهم في الشرارة وهي غاية المذمّة؛ لأنه لا شرّ من الشيطان، أوهم إخوانهم وأصدقاؤهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف، أوهم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد ﴿وكان الشيطان لربه كفورًا﴾ فما ينبغي أن يطاع فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله، وقرأ الحسن: إخوان الشيطان.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾.

وإن أعرضت عن ذي القربى والمسكين، وابن السبيل، حياء من الردّ ﴿فقل لهم قولا ميسورًا﴾ فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك، وكان النبي ﷺ إذا سئل شيئًا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء[7] قوله: ﴿ابتغاء

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في بر الوالدين فضل «في حفظ حق الوالدين بعد موتهما» (الحديث رقم: 7976)، والبخاري في الأدب المفرد 1/62 باب جزاء الوالدين (الحديث رقم: 11).

(3) رواه الطبراني في الأوسط وابن عدي في الكامل.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل صلة أصدقاء الأب والأم (الحديث رقم: 6460).

(6) رواه ابن ماجه في كتاب: الطهارة وسننها، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه (الحديث رقم: 425) وأحمد في المسند (2/226).

(7) رواه الحاكم في المستدرك 3/130.

رحمة من ربك﴾ إمّا أن يتعلق بجواب الشرط مقدّمًا عليه أي: فقل لهم قولاً سهلاً لينًا، وعدهم وعدًا جميلاً رحمة لهم وتطييبًا لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك أي: ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي: وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك فسمى الرزق رحمة، فردّهم ردًّا جميلاً، فوضع الابتغاء موضع الفقد؛ لأنّ فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسببًا عنه فوضع المسبب موضع السبب، ويجوز أن يكون معنى: **﴿وإمّا تعرضنّ عنهم﴾** وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصاصتهم لعدم الاستطاعة، ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك؛ لأن من أبى أن يعطي أعرض بوجهه. يقال: يسر الأمر وعسر مثل سعد الرجل نحس فهو مفعول، وقيل معناه: فقل لهم: رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم، كأن معناه: قولاً ذا ميسور وهو: اليسر أي: دعاء فيه يسر.

هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير **﴿فتقعد ملومًا﴾** فتصير ملومًا عند الله؛ لأنّ المسرف غير مرضي عنده وعند الناس يقول المحتاج: أعطي فلانًا وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة، وعند نفسك إذا احتجت فندمت على ما فعلت **﴿محسورًا﴾** منقطعًا بك لا شيء عندك من حسرة السفر إذا بلغ منه وحسره بالمسألة، وعن جابر: بينا رسول الله ﷺ جالس أتاه صبي فقال: إنّ أمي تستكسيك درعًا فقال: «من ساعة إلى ساعة يظهر فعد إلينا، فذهب إلى أمّه فقالت له: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك «فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانًا»، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة[1]، وقيل: أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن، فجاء عباس بن مرداس وأنشأ يقول:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين عيينه والأقرع

وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان جدي في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال: «يا أبا بكر اقطع لسانه عني، اعطه مائة من الإبل»[2] فنزلت. ثم سلا رسول الله ﷺ عما كان يرهقه من الإضافة، بأنّ ذلك ليس لهوان منك عليه ولا لبخل به عليك، ولكن لأنّ مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها تابعة للحكمة والمصلحة، ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزائن في يده، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا، ويحتمل أنه عزّ وعلا بسط لعباده أو قبض فإنه يراعي أوسط الحالين لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه فاستنوا بسنته.

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾.

قتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الإملاق فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم. وقرئ*: خشية بكسر الخاء. وقرئ*: خطأ وهو الإثم يقال: خطئ خطأ كاثم إثمًا، وخطأ وهو ضد الصواب اسم من أخطأ، وقيل: هو والخطء كالحذر والحذر، وخطاء بالكسر والمد، وخطاء بالفتح والمد وخطأ بالفتح والسكون، وعن الحسن: خطا بالفتح وحذف الهمزة كالخب، وعن أبي رجاء: بكسر الخاء غير مهموز **﴿فاحشة﴾** قبيحة زائدة على حد القبح **﴿وساء سبيلا﴾** وبئس طريقًا طريقه وهو أن تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب، والسبب ممكن وهو الصهر الذي شرعه الله.

وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾.

﴿إلا بالحق﴾ إلا بإحدى ثلاث إلا بأن تكفر، أو تقتل مؤمنًا عمدًا، أو تزني بعد إحصان **﴿مظلومًا﴾** غير راكب واحدة منهنّ **﴿لوليه﴾** الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة بدمه، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه **﴿سلطانًا﴾** تسلطًا على القاتل في الاقتصاص منه، أو حجة يثب بها عليه **﴿فلا يسرف﴾** الضمير للولي أي: فلا يقتل غير القاتل، ولا اثنين والقاتل واحد، كعادة الجاهلية كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة حتى قال مهلهل حين قتل بجير بن الحرث بن عباد: وبشسع نعل كلب وقال:

كل قتيل في كليب غرة ... حتى ينال القتل آل مرة

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء، وقيل: الإسراف المثلة، وقرأ أبو مسلم صاحب الدولة: فلا يسرف بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر وفيه مبالغة ليست في الأمر، وعن مجاهد أنّ الضمير للقاتل الأوّل، وقرئ*: فلا تسرف على خطاب الولي، أو قاتل المظلوم، وفي قراءة أبيّ: فلا تسرفوا رده علي ولا تقتلوا **﴿إنه كان منصورًا﴾** الضمير إمّا للولي يعني: حسبه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يستزد على ذلك، وبأنّ الله قد نصره بمعونة السلطان، وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق فلا يبغ ما وراء حقه، وإمّا للمظلوم؛ لأنّ الله ناصره وحيث أوجب القصاص بقتله وينصره في الآخرة؟ الثواب وإمّا للذي يقتله الولي بغير حق ويسرف في قتله فإنه منصور

(1) لم يخرجه الزيلعي.

(2) رواه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.. (الحديث رقم: 2440).

بإيجاب القصاص على المسرف.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾.

﴿بالتي هي أحسن﴾ بالخصلة أو الطريقة التي هي أحسن وهي حفظه عليه وتثميره **﴿إنّ العهد كان مسؤولاً﴾**[1] أي: مطلوبًا يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلاّ وفي بك تبكيتًا للناكث، كما يقال للموؤدة: ﴿بأي ذنب قتلت﴾[2]؟ ويجوز أن يراد أنّ صاحب العهد كان مسؤولاً.

وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾.

قرئ: **﴿بالقسطاس﴾** بالضم والكسر وهو: القرسطون وقيل كل ميزان صغر أو كبر من موازين الدراهم وغيرها **﴿وأحسن تأويلاً﴾** وأحسن عاقبة وهو: تفعيل من آل إذا رجع وهو ما يؤول إليه.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾.

﴿ولا تقف﴾ ولا تتبع وقرئ: ولا تقف يقال: قفا أثره وقافه، ومنه القافة يعني: ولا تكن في اتباعك ما لا علم لك به من قول، أو فعل كمن يتبع مسلكًا لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو: ضال، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم وأن يعمل بما لا يعلم، ويدخل فيه النهي عن التقليد دخولاً ظاهرًا لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساده، وعن ابن الحنفية: شهادة الزور وعن الحسن: لا تقف أخاك المسلم إذا مر بك فتقول: هذا يفعل كذا، ورأيته يفعل، وسمعته، ولم تر ولم تسمع، وقل: القفو شبيه بالعضيهة ومنه الحديث: «من قفى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردغة الخبال حتى يأتي بالمخرج»[3] وأنشد:

ومثل الدمى شم الغرانين ساكن بهنّ الحياء لا يشعن التقافيا

أي: التقانف، وقال الكميت:

ولا أرمي البريّ بغير ذنب ولا أقفو الحواصن إن قفينا

وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأنّ ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم وأمر بالعمل به **﴿أولئك﴾** إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد كقوله:

والعيش بعد أولئك الأيام

و **﴿عنه﴾** في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحد منها كان مسؤولاً عنه، فمسؤول مسند إلى الجار والمجرور كالمغضوب في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾[4]. يقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ: والفواد بفتح الفاء والواو قلبت الهمزة واوًا بعد الضمة في الفؤاد ثم استصحب القلب مع الفتح.

وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾.

﴿مرحًا﴾ حال أي: ذا مرح وقرئ: مرحًا، وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد **﴿لن تخرق الأرض﴾** لن تجعل فيها خرقًا[5] بدوسك لها وشدّة وطأتك، وقرئ: لن تخرق بضم الراء **﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾** بتطاولك وهو تهكم بالمختال.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾.

قرئ: سيئة وسيئه على إضافة سيء إلى ضمير كل، وسيأ في بعض المصاحف، وسيآت وفي قراءة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان شأنه.

فإن قُلْتَ: كيف قيل **﴿سيئه﴾** مع قوله: **﴿مكروهًا﴾**؟ **قُلْتُ:** السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم، زال عنه حكم الصفات فلا اعتبار بتأنيثه ولا فرق بين من قرأ: سيئة وسيأ، الا تراك تقول: الزنا سيئة كما تقول: السرقة سيئة، فلا تفرق بين إسنادها إلى مذكر ومئنث.

فإن قُلْتَ: فما ذكر من الخصال بعضها سيء وبعضها حسن، ولذلك قرأ من قرأ سيئه بالإضافة، فما وجه من قرأ سيئه؟ **قُلْتُ:** كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة، لا بجميع الخصال المعدودة.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾.

---

(1) قال أحمد: كلام حسن، إلا لفظة التخييل، فقد تقدّم إنكارها عليه، وينبغي أن يعوض بالتمثيل، والظاهر التأويل الأوّل، ويكون المجرور الذي هو عنه حذف تخفيفاً، وقد ذكر في بقية الآي: ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ والله أعلم، ويعضد تأويل سؤال العهد نفسه، على وجه التمثيل، وقوف الرحم بين يدي الله، وسؤالها فيمن وصلها وقطعها، وقدورد ذلك في الحديث الصحيح، والله الموفق.

(2) سورة التكوير، الآية: 9.

(3) رواه الإمام أحمد في مسنده 2/82 وأبو داود في كتاب: الأقضية، باب: فيمن يغبن على خصومة.

(4) سورة الفاتحة، الآية: 7.

(5) قال أحمد: وفي هذا التهكم والتقريع، لمن يعتاد هذه المشيئة، كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسيئتين، أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفاً من رياسة الدنيا، إذا هو يتبختر في مشيه، ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، كأنهم يمرون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيده أن يقرأ القرآن، أو يقرأ عليه، وقلبه، عن تدبره على مراحل، والله وليّ التوفيق.

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدّم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلٰهًا آخر﴾[1] إلى هذه الغاية، وسماه حكمة؛ لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه، وعن ابن عباس: هذه الثماني عشرة آية كانت في ألواح أوّلها ﴿لا تجعل مع الله إلٰهًا آخر﴾[2] قال الله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة﴾[3] وهي عشر آيات في التوراة، ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذّ فيها الحكماء وحك بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم وهم عن دين الله أضلّ من النعم.

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿أفاصفاكم﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله، والهمزة للإنكار يعني: أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم: البنون ولم يجعل فيهم نصيبًا لنفسه، واتخذا دونهم وهي: البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم، فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ويكون أرداها وأدونها للسادات ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيمًا﴾ بإضافتكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم أدون خلق الله وهم: الإناث.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ۚ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾.

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن﴾ يجوز يريد بهذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات؛ لأنه مما صرفه وكرّر ذكره، والمعنى: ولقد صرفنا القول في هذا المعنى، أو أوقعنا التصريف فيه وجعلناه مكانًا للتكرير، ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد ولقد صرفنا يعني: هذا المعنى في مواضع من التنزيل فترك الضمير لأنه معلوم. وقرئ: صرفنا بالتخفيف وكذلك ﴿ليذكروا﴾ قرئ: مشدّدًا ومخففًا أي: كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمئنوا إلى ما يحتج به عليهم ﴿فما يزيدهم إلا نفورًا﴾ عن الحق وقلة طمانينة إليه، وعن سفيان كان إذا قراها قال: زادني لك خضوعًا ما زاد أعداءك نفورًا.

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾.

قرئ: كما تقولون بالتاء والياء و ﴿إذًا﴾ دالة على أن ما بعدها وهو: لابتغوا جواب عن مقاتلة المشركين وجزاء للو ومعنى ﴿لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلاً بالمغالبة كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض، كقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[4] وقيل لتقرّبوا إليه كقوله: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[5].

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾.

﴿علوًا﴾ في معنى: تعاليًا، والمراد: البراءة عن ذلك والنزاهة. ومعنى وصف العلوّ بالكبر: المبالغة في معنى البراءة، والبعد مما وصفوه به.

تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾.

والمراد[6]: أنها تسبح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تتعلق بذلك، وكأنها تنزه الله عز وجلّ مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها.

فإن قُلْتَ: فما تصنع بقوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ وهذا التسبيح مفقوه معلوم؟ **قُلْتُ:** الخطاب للمشركين وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السمٰوات والأرض، قالوا: الله، إلا أنهم لما جعلوا معه آلهة مع إقرارهم،

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 22.
(2) سورة الإسراء، الآية: 22.
(3) سورة الأعراف، الآية: 145.
(4) سورة الأنبياء، الآية: 22.
(5) سورة الإسراء، الآية: 57.
(6) قال أحمد: ولقائل أن يقول: فما يصنع بقوله: ﴿كان حليماً غفوراً﴾ وهو لا يغفر للمشركين، ولا يتجاوز عن جهلهم، وكفرهم، وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنون، والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقههم للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه والله أعلم، من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى أن النملة والبعوضة وكل ذرة من = نرات الكون تسبح الله، وتنزهه، وتشهد بجلاله، وكبريائه، وقهره، وعمر خاطره بهذا الفهم، لكاد ذلك يشغله عن القوت، فضلاً عن فضول الكلام والأفعال، والعاكف على الغيبة التي هي فاكهتنا في زماننا هذا، لو استشعر حال إفاضته فيها، إن كل ذرة وجوهر من نرات لسانه الذي يلقلقه في سخط الله تعالى عليه مشغولة، مملوءة بتقديس الله تعالى وتسبيحه وتخويف عقابه وإرهاب جبروته وتيقظ لذلك حق التيقظ لكادان لا يتكلم بقية عمره، فالظاهر والله أعلم، أنّ الآية إنما وردت خطاباً على الغالب في أحوال الغافلين، وإن كانوا مؤمنين، والله الموفق، فالحمد لله الذي كان حليماً غفوراً.

فكأنهم لم ينظروا ولم يقرّوا؛ لأنّ نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه، فإذًا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق.

فإن قُلْتَ[1]: من فيهنّ يسبحون على الحقيقة وهم: الملائكة والثقلان وقد عطفوا على السمٰوات والأرض فما وجهه؟ **قُلْتُ**: التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز **﴿إنه كان حليمًا غفورًا﴾** حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم.

﴿حجابًا مستورًا﴾ ذا ستر كقولهم: سيل مفعم ذو إفعام، وقيل: هو حجاب لا يرى فهو مستور، ويجوز أن يراد: أنه حجاب من دونه حجاب، أو حجب، فهو مستور بغيره، أو حجاب يستر أن يبصر، فكيف يبصر المحتجب به، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه: **﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾**[2] كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم **﴿أن يفقهوه﴾** كراهة أن يفقهوه، أو لأنّ قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة فيه معنى: المنع من الفقه فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحد يحد وحدًا وحدة نحو وعد يعد وعدًا وعدة **﴿وحده﴾** من باب رجع عوده على بدئه وافعله جهدك وطاقتك في أنه مصدر سادّ مسدّ الحال أصله يحد وحده بمعنى: واحدًا أو حده. والنفور مصدر بمعنى التولية، أو جمع نافر كقاعد وقعود أي: يحبون أن تذكر معه آلهته لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتوحيد نفروا **﴿بما يستمعون به﴾** من الهزؤ بك وبالقرآن ومن اللغو، كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، و**﴿به﴾** في موضع الحال كما نقول: يستمعون بالهزؤ أي: هازئين و**﴿إذ يستمعون﴾** نصب بأعلم أي: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون **﴿وإذ هم نجوى﴾** وبما يتناجون به إذ هم ذوو نجوى **﴿إذ يقول﴾** بدل من إذ هم **﴿مسحورًا﴾** سحر فجنّ، وقيل: هو من السحر وهو الرئة أي: هو بشر مثلكم.

﴿ضربوا لك الأمثال﴾ مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون **﴿فضلوا﴾** في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾.

لما قالوا: **﴿أئذا كنا عظامًا﴾** قيل لهم **﴿كونوا حجارة أو حديدًا﴾** فردّ قوله: كونوا على قولهم كنا كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديدًا ولا تكونوا عظامًا فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحي وغضاضته بعد ما كنتم عظامًا يابسة، مع أنّ العظام بعض أجزاء الحيّ بل هي عمود خلقه الذي يبني عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي ومن جنس ما ركب منه البشر وهو: أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدًا، مع أنّ طباعها الجساوة والصلابة، لكان قادرًا على أن يردكم إلى حال الحياة **﴿أو خلقًا مما يكبر في صدوركم﴾** يعني: أو خلقًا مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه، وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت، وقيل: السمٰوات والأرض **﴿فسينغضون﴾** فسيحركونها نحوك تعجبًا واستهزاء.

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾.

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز، والمعنى: يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون وقوله: **﴿بحمده﴾** حال منهم أي: حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشقّ عليه فيتأبى ويتمنع: ستركبه وأنت حامد شاكر يعني: أنك تحمل عليه وتقسر قسرًا، حتى أنك تلين لين المسمح الراغب الحامد عليه، وعن سعيد بن جبير: ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك **﴿وتظنون﴾** وترون الهول، فعنده تستقصرون مدّة لبثكم في الدنيا وتحسونها يومًا أو بعض يوم، وعن قتادة: تحاقرت الدنيا في أنفسهم حين عاينوا الآخرة.

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾.

﴿وقل لعبادي﴾ وقل للمؤمنين **﴿يقولوا﴾** للمشركين الكلمة **﴿التي هي أحسن﴾** وألين ولا يخاشنوهم كقوله: **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾**[3] وفسر التي هي أحسن بقوله: **﴿ربكم أعلم بكم إن يشا يرحمكم أو إن يشا يعذبكم﴾** يعني: يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها، ولا يقولوا لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما

(1) قال أحمد: وقد تقدّم نقلي عنه، أنه يأبى حمل اللفظ على حقيقته، ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل، ولكن ظهر من كلامه، ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد، وعدم الامتناع على القدرة، ليكون متناً، ولا للمكلفين وغير المكلفين بطريق التواطؤ؛= = وقد يكون أراد: ثم المجاز، والله الموفق.

(2) سورة فصلت، الآية: 5.

(3) سورة النحل، الآية: 125.

يغيظهم ويهيجهم على الشر، وقوله: ﴿إن الشيطان ينزغ بينهم﴾ اعتراض يعني: يلقي بينهم الفساد ويغري بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة ﴿وما أرسلناك عليهم وكيلاً﴾ أي: ربًا موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على الإسلام وتجبرهم عليه، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا، فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمكاشفة، وذلك قبل نزول آية السيف، وقيل: نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل، فأمره الله بالعفو. وقيل: أفرط إيذاء المشركين للمسلمين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وقيل: الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله. وقرأ طلحة: ينزغ بالكسر، وهما لغتان: نحو يعرشون ويعرشون.

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾.

هو ردّ على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يتيم أبي طالب نبيًا، وأن تكون العراة الجوّع أصحابه كصهيب وبلال وخباب وغيرهم دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم يعني: وربك أعلم بمن في السمٰوات والأرض وبأحوالهم ومقاديرهم وبما يستاهل كل واحد منهم، وقوله: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ، وقوله: ﴿وآتينا داود زبورًا﴾ دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود، وقال الله تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[1] وهم محمد وأمته.

فإن قُلْتَ: هلا عرف الزبور كما عرف في قوله: ﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾؟[2] **قُلْتُ:** يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس والفضل وفضل، وأن يريد وآتينا داود بعض الزبر وهي الكتب، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور، فسمى ذلك زبورًا لأنه بعض الزبور كما سمي بعض القرآن قرآنًا.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾.

هم الملائكة، وقيل: عيسى ابن مريم، وعزير، وقيل: نفر من الجن عبدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا. أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه و ﴿أولئك﴾ مبتدأ و ﴿الذين يدعون﴾ صفته و ﴿يبتغون﴾ خبره يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي: القربة إلى الله تعالى و ﴿أيهم﴾ بدل من واو يبتغون، وأي موصولة أي: يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله فكيف بغير الأقرب. أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون، فكأنه قيل: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ﴿ويرجون﴾ ويخافون كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ﴿إن عذاب ربك كان﴾ حقيقًا بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلاً عن غيرهم.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾.

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل وأنواع العذاب وقيل: الهلاك للصالحة والعذاب للطالحة، وعن مقاتل: وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها: أما مكة فيخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فعذابها ضروب، ثم نكرها بلدًا بلدًا ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾.

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة. وأن الأولى منصوبة والثانية مرفوعة تقديره: وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين، والمراد الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبًا، ومن إحياء الموتى وغير ذلك، وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال، فالمعنى: وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا: ﴿هذا سحر مبين﴾[3] كما يقولون في غيرها، واستوجبوا العذاب المستأصل، وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة. ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة صالح؛ لأنّ آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿مبصرة﴾ بينة، وقرئ: مبصرة بفتح الميم ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ﴿وما نرسل بالآيات﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى: لا نرسلها ﴿إلا تخويفًا﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدّمة له، فإن لم يخافوا وقع عليهم. وإن أراد غيرها فالمعنى: وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفًا وإنذارًا بعذاب الآخرة.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ

(1) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 105.

(3) بعض آية ورد في سبعة مواضع من القرآن منها: سورة المائدة، الآية: 110.

إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾.

﴿وإذ قلنا لك إنّ ربك أحاط بالناس﴾ وانكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش يعني: بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم ونلك قوله: **﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾**[1] **﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون﴾**[2] وغير ذلك، فجعله كأن قد كان ووجد، فقال: أحاط بالناس على عادته في إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي ﷺ في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «اللهم إني أسألك عهدك ووعدك». ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر». ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر «والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يوميء إلى الأرض ويقول: هذا مصرع فلان هذا مصرع فلان»، فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله ﷺ من أمر يوم بدر وما أري في منامه من مصارعهم، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء[3]، وحين سمعوا بقوله[4]: **﴿إنّ شجرة الزقوم * طعام الأثيم﴾**[5] جعلوها سخرية وقالوا: إن محمدًا يزعم أنّ الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر! وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وما أنكروا وأن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار، فهذا وبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد الحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارًا فلا تحرقها، فمن أنكروا أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها والمعنى: أنّ الآيات إنما يرسل بها تخويفًا للعباد، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا، وهو القتل يوم بدر. فما كان ما **﴿أريناك﴾** منه في منامك بعد الوحي إليك **﴿إلا فتنة﴾** لهم حيث اتخذوه سخريًا، وخوّفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم، ثم قال فيهم **﴿ونخوفهم﴾** أي: نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة **﴿فما يزيدهم﴾** التخويف **﴿إلا طغيانًا كبيرًا﴾** فكيف يخاف قوم هذه حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات[6]، وقيل الرؤيا هي: الإسراء، وبه تعلق من يقول: كان الإسراء في المنام، ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية، وقيل: إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له: لعلها رؤيا رأيتها وخيال خيل إليك استبعادًا منهم، كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة نحو قوله: **﴿فراغ إلى آلهتهم﴾**[7] **﴿أين شركائي﴾**[8] **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾**[9] وقيل: هي رؤياه أنه سيدخل مكة، وقيل: رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة.

فإن قُلْتَ: أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن؟ **قُلْتُ:** لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة؛ لأنّ الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة. وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز، وقيل: وصفها الله باللعن والإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة، وقيل: تقول العرب لكل طعام مكروه: ضار ملعون، وسألت بعضهم فقال: نعم، الطعام الملعون القشب الممحوق، وعن ابن عباس: هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب، وقيل: هي الشيطان، قيل: أبو جهل. وقرئ: والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف الخبر كأنه قيل: والشجرة الملعونة في القرآن كذلك.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾.

﴿طينًا﴾ حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد على أأسجد له وهو طين أي: أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينًا **﴿أرأيتك﴾** الكاف للخطاب و **﴿هذا﴾** مفعول به والمعنى: أخبرني عن هذا **﴿الذي كرمته﴾** به **﴿عليّ﴾** أي: فضلته لم كرمته عليّ وأنا خير منه؟ فاختصر الكلام بحذف تلك، ثم ابتدأ فقال **﴿لئن أخرتني﴾** واللام موطئة للقسم المحذوف **﴿لأحتنكن ذريته﴾** لأستأصلهم بالإغواء من احتنك الجراد الأرض إذ جرد ما عليها أكلاً، وهو من الحنك، ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم: أحنك الشاتين أي: أكلهما.

فإن قُلْتَ: من أين علم أن تلك يتسهل له وهو من الغيب؟ **قُلْتُ:** إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به، أو خرجه من قولهم **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾**[10] أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهواني، وقيل: قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم، والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة.

---

(1) سورة القمر، الآية: 45.

(2) سورة آل عمران، الآية: 12.

(3) قال أحمد: والعمدة في ذلك، أنّ النار لا تؤثر إحراقاً في شيء، ولكن الله تعالى أجرى العادة، أنه خلق الحرق عند ملاقاة جسم النار لبعض الأجسام، فإذا كان ذلك من فعل الله لا من فعل النار، فللّه تعالى أن لا يفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم.

(4) رواه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ (الحديث رقم: 2915).

(5) سورة الدخان، الآيتان: 43 و44.

(6) قال أحمد: ويبعد ذلك قوله تعالى: ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾ وقوله: ﴿فإنهم لآكلون منها﴾ والله أعلم.

(7) سورة الصافات، الآية: 91.

(8) بعض آية ورد في أربعة مواضع من القرآن منها: سورة النحل، الآية: 27.

(9) سورة الدخان، الآية: 49.

(10) سورة البقرة، الآية: 30.

قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾.

﴿اذهب﴾ ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء إنما معناه: لبعض لشانك الذي أخذته خذلانًا وتخلية وعقبة بذكر ما جرّه سوء اختياره في قوله ﴿فمن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامري: ﴿فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾[1].

فإن قُلْتَ: أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى ﴿فمن تبعك﴾؟ **قُلْتُ:** بلى ولكن التقدير: فإنّ جهنم جزاؤهم وجزاؤك، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيل جزاؤكم، ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات، وانتصب ﴿جزاء موفورًا﴾ بما في فإنّ جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون، أو على الحال؛ لأنّ الجزاء موصوف بالموفور والموفور الموفر يقال: فر لصاحبك عرضه فرة.

وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾.

استفزّه استخفه والفز الخفيف ﴿واجلب﴾ من الجلبة وهي الصياح. والخيل: الخيالة ومنه قول النبي ﷺ: «يا خيل الله اركبي»[2]. والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب. وقرئ: ورجلك على أنّ فعلا بمعنى: فاعل نحو تعب وتاعب، معناه: وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضًا فيكون مثل حدث وحدث، وندس وندس، وأخوات لهما يقال: رجل رجل، وقرئ: ورجالك ورجالك.

فإن قُلْتَ: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله؟ **قُلْتُ:** هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم، واجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم، وقيل: بصوته بدعائه إلى الشر، وخيله ورجله كلّ راكب وماش من أهل العيث، وقيل: يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وأمّا المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما كالربا والمكاسب المحرّمة، والبحيرة والسائبة، والإنفاق في الفسوق والإسراف، ومنع الزكاة، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث، والتهويد والتنصير، والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة وغير ذلك ﴿وعدهم﴾[3] المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، وتسويف التوبة، ومغفرة الذنوب بدونها، والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر، والخروج من النار بعد أن يصيروا حممًا، وإيثار العاجل على الآجل ﴿إنّ عبادي﴾ يريد الصالحين ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: لا تقدر أن تغويهم ﴿وكفى بربك وكيلا﴾ لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك ونحوه قوله: ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾[4].

فإن قُلْتَ: كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويًا مضلاً داعيًا إلى الضر صادًا عن الخير؟ **قُلْتُ:** هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخلية كما قال للعصاة ﴿اعملوا ما شئتم﴾[5].

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾.

﴿يزجي﴾ يجري ويسير. والضرّ خوف الغرق ﴿ضلّ من تدعون إلا إياه﴾ ذهب عن أوهامكم وخواطركم كلّ من تدعونه في حوائجكم إلاّ إياه وحده، فإنكم لا تذكرون سواه، ولا تدعونه في تلك الوقت، ولا تعتقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أنّ غيره يقدر على إغاثتكم، أو لم يهتد لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوّين، ويجوز أن يراد: ضلّ من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم، ولكنّ الله وحده هو الذي ترجونه، وحده على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾.

﴿أفأمنتم﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿جانب البر﴾؟ **قُلْتُ:** بيخسف مفعولاً به كالأرض في قوله: ﴿فخسفنا به وبداره

---

(1) سورة طه، الآية: 97.

(2) رواه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في النداء عند النفير يا خيل الله اركبي (الحديث رقم: 2560).

(3) قال أحمد: وهذا من تجزى المصنف على السنة ومتبعيها، فإنه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة، وإن لم تكن توبة للمؤمنين من مواعيد الشيطان، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعداً من = الرحمن، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة، التي وعد بها الصادق المصدوق، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق، من مواعيد الشيطان الباطلة، وأمانيه الماحلة، اللهم ارزقنا الشفاعة، واحشرنا في زمرة السنة والجماعة.

(4) سورة الحجر، الآية: 40.

(5) سورة فصلت، الآية: 40.

الأرض﴾[1] وبكم حال والمعنى: أن يخسف جانب البر أي: يقلبه وأنتم عليه.

فإن قُلْتَ: فما معنى ذكر الجانب؟ **قُلْتُ:** معناه: أن الجوانب والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برًا كان أو بحرًا سبب مرصد من أسباب الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصًا بذلك، بل إن كان الغرق في جانب البحر ففي جانب البر ما هو مثله وهو: الخسف، لأنه تغييب تحت التراب كما أنّ الغرق وتغييب تحت الماء، فالبرّ والبحر عنده سيان، يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوي خوفه من الله في جميع الجوانب وحيث كان **﴿أو يرسل عليكم حاصبًا﴾** وهي الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم به من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها فيكون أشدّ عليكم من الغرق في البحر **﴿وكيلاً﴾** من يتوكل يصرف ذلك عنكم **﴿أمن امنتم﴾** أن يقوّي دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا فتركبوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم فينتقم منكم بأن يرسل **﴿عليكم قاصفًا﴾** وهي: الريح التي لها قصيف وهو: الصوت الشديد كأنها تتقصف أي: تتكسر، وقيل: التي لا تمر بشيء إلا قصفته **﴿فيغرقكم﴾** وقرئ: بالتاء أي: الريح. وبالنون، وكذلك نخسف، ونرسل، ونعيدكم قرئت بالياء والنون. التبيع المطالب من قوله: ﴿فاتباع بالمعروف﴾[2] أي: مطالبة، قال الشماخ:

كما لاذ الغريم من التبيع

يقال: فلان على فلان تبيع بحقه، أي: مصيطر عليه مطالب له بحقه، والمعنى: إنا نفعل ما نفعل بهم ثم لا تجد أحد يطالبنا بما فعلنا انتصارًا منا ودركًا للنار من جهتنا، وهذا نحو قوله: ﴿ولا يخاف عقباها﴾[3] **﴿بما كفرتم﴾** بكفرانكم النعمة يريد: إعراضهم حين نجاهم.

۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾.

قيل في تكرمة ابن آدم: كرّمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم، وعن الرشيد انه أحضر طعامًا فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف فقال له: جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى: **﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾** جعلنا لهم أصابع يأكلون بها فاحضرت الملاعق، فردّها وأكل بأصابعه **﴿على كثير ممن خلقنا﴾** هو ما سوى الملائكة[4]، وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم ومنزلتهم عند الله منزلتهم، والعجب من المجبرة كيف عكسوا في كل شيء وكابروا حتى جسرتهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك، وذلك بعدما سمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم، وعلموا أين أسكنهم وأنى قرّبهم وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أممهم، ثم جرّهم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالاً وأخبارًا منها قالت الملائكة: ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون، ولم تعطنا ذلك؟ فأعطناه في الآخرة فقال: وعزتي وجلالي لا أجعل ذرّية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان[5]، ورووا عن أبي هريرة أنه قال: لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده[6]، ومن ارتكابهم أنهم فسروا كثيرًا بمعنى جميع في هذه الآية، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم: **﴿وفضلناهم على جميع ممن خلقنا﴾** على أن معنى قولهم على جميع ممن خلقنا أشجى لحلوقهم وأقذى لعيونهم ولكنهم لا يشعرون، فانظر إلى تمحلهم وتشبثهم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملأ الأعلى، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾.

قرئ: يدعو بالياء والنون ويدعى كل أناس على البناء للمفعول، وقرأ الحسن: يدعو كل أناس على قلب الألف واوًا في لغة من يقول افعوا. والظرف نصب بإضمار اذكر،

---

(1) سورة القصص، الآية: 81.

(2) سورة البقرة، الآية: 178.

(3) سورة الشمس، الآية: 15.

(4) قال أحمد: وقد بلغ إلى حدّ من السفه، يوجب الحدّ، واستالمساجلنه، إلا من حيث العلم، لا من حيث السفه، والقدر الذي تختص به هذه الآية، أن حمل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر، ألا ترى أنه ورد حمل القليل على العدم، والزمخشري يختار ذلك في قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ وأشباهه كثير، وقد لمح الشاعر بذلك في قوله:

قليل بها الأصوات إلا بغامها

أي: لا أصوات بها، ولنا أن نبقيه على ما هو عليه، ونقول: إنّ المخلوق قسمان بنو آدم أحدهما، وغيرهم من جميع المخلوقين = القسم الآخر، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم، وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيراً، فمعنى قوله: ﴿وفضلناهم على كثير ممن خلقنا﴾ أي: على غيرهم من جميع المخلوقين، وتلك الأغيار كثير بلا مراء، وذلك مرادف لقولك: وفضلناهم على جميع من عداهم ممن خلقنا، فظاهر الآية إذاً مع الأشعرية الذين سماهم مجبرة، وتمشدق في سبهم، وشقشق العبارات في ثلبهم، وما يلفظ من قول، إلا لديه رقيب عتيد، والله وليّ التوفيق والتسديد.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالملائكة، فصل: في معرفة الملائكة (الحديث رقم: 152) وابن ماجه في كتاب: الفتن، باب: المسلمون في ذمة الله تعالى (الحديث رقم: 3946).

(6) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الحديث رقم: 153).

ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع كما في ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[1] والرفع مقدر كما في ﴿يدعى﴾[2] ولم يؤت بالنون قلة مبالاة بها؛ لأنها غير ضمير ليست إلا علامة. ﴿بإمامهم﴾[3] بمن ائتموا به من نبيّ أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا وكتاب كذا، وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، وفي قراءة الحسن: بكتابهم. ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم، وأن الحكمة في الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وأن لا يفتضح أولاد الزنا، وليت شعري أيهما أبدع أصحة لفظه أم بهاء حكمته ﴿فمن أوتي﴾ من هؤلاء المدعوّين ﴿كتابه بيمينه فأولئك يقرؤن كتابهم﴾ قيل: أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع.

فإن قُلْتَ: لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم كان أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم؟ قُلْتُ: بلى ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جناياته والاعتراف بمساويه أمام التنكيل به والانتقام منه من الحياء والخجل والانخزال وحبسة اللسان والتتعتع والعجز عن إقامة حروف الكلام والذهاب عن تسوية القول فكأن قراءتهم كلا قراءة، وأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك لا جرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هاؤم اقرؤا كتابيه﴾[4] ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء كقوله: ﴿ولا يظلمون شيئًا﴾[5] ﴿فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا﴾[6] معناه: ومن كان في الدنيا أعمى فهو في الآخرة أعمى كذلك ﴿وأضل سبيلاً﴾ من الأعمى، والأعمى مستعار ممن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا[7] أن يكون الثاني بمعنى: التفضيل، ومن ثم قرأ أبو عمرو الأوّل[8]: ممالاً، والثاني: مفخمًا؛ لأن أفعل التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام كقولك: أعمالكم، وأمّا الأوّل فلم يتعلق به شيء فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

روي: أنّ ثقيفًا قالت للنبي ﷺ: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب، لا نعشر، ولا نحشر، ولا نجبي في صلاتنا، وكل ربًا لنا فهو لنا، وكل ربًا علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا نكسرها بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وج فعضد شجره، فإذا سألتك العرب لم فعلت ذلك فقل: إنّ الله أمرني به، وجاؤا بكتابهم، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون، ولا يحشرون فقالوا: ولا يجبون، فسكت رسول الله ﷺ، ثم قالوا للكاتب: اكتب ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسلّ سيفه وقال: أسعرتم قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعر الله قلوبكم نارًا، فقالوا: لسنا نكلم إياك إنما نكلم محمدًا[9]، فنزلت. وروي أنّ قريشًا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى نؤمن بك، فنزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إن مخففة من الثقيلة واللام هي: الفارقة بينها وبين النافية، والمعنى: أنّ الشأن قاربوا أن يفتنوك، أي: يخدعوك فاتنين ﴿عن الذي أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا ﴿لتفتري علينا﴾ لتقول علينا ما لم نقل يعني: ما أداروه عليه من تبديل الوعد وعيدًا والوعيد وعدًا، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه ﴿وإذا لاتخذوك﴾ أي: ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خليلاً﴾ ولكنت لهم وليًا وخرجت من ولايتي.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ولولا أن ثبتناك﴾ ولولا تثبتنا لك وعصمتنا ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهييج من الله له، وفضل تثبيت وفي ذلك لطف للمؤمنين ﴿إذًا﴾ لو قاربت تركن إليهم أدنى ركنة ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي: لأذقناك

(1) سورة الأنبياء، الآية: 3.

(2) سورة الصف، الآية: 7.

(3) قال أحمد: ولقد استبدع بدعاً لفظاً ومعنى، فإن جمع الأمّ المعروف أمّهات، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمّهات الخلائق، ليذكر بأمّه، فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب، غميزة في منصبه، وذلك عكس الحقيقة، فإنّ خلقه من غير أب، كان له آية له، وشرفاً في حقه، والله أعلم.

(4) سورة الحاقة، الآية: 19.

(5) سورة مريم، الآية: 60.

(6) سورة طه، الآية: 112.

(7) قال أحمد: أي: لأنه من عمى القلب، لاعمى البصر، فجاز أن ينبني منه أفعل.

(8) قال أحمد: ويحتمل أن تكون هذه الآية قسمية الأولى، أي: فمن أوتي كتابه بيمينه، فهو الذي يبصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه، ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك، غير مبصر في كتابه بل أعمى عنه، أو أشد عمى مما كان في الدنيا، على اختلاف التأويلين، والله أعلم.

(9) لم يخرجه الزيلعي.

عذاب الآخرة، وعذاب القبر مضاعفين[1].

فإن قُلْتَ: كيف حقيقة هذا الكلام **قُلْتُ**: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب الممات؛ لأنّ العذاب عذابان عذاب في الممات وهو: عذاب القبر، وعذاب في حياة الآخرة وهو: عذاب النار، والضعف يوصف به نحو قوله: ﴿فآتهم عذابًا ضعفًا من النار﴾[2] بمعنى: مضاعفًا، فكان أصل الكلام لأذقناك عذابًا ضعفًا في الحياة، وعذابًا ضعفًا في الممات، ثم حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وهو: الضعف، ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل: ضعف الحياة وضعف الممات، كما لو قيل: لأذقناك أليم الحياة وأليم الممات، ويجوز أن يراد بضعف الحياة: عذاب الحياة الدنيا، وبضعف الممات: ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا، وما نؤخره لما بعد الموت. وفي نكر الكيدودة وتقليلها مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبائح إلى الله تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر، وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب في دين الله، وعن النبي ﷺ أنها لما نزلت كان يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[3].

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾.

﴿وإن كادوا﴾ وإن كاد أهل مكة ﴿ليستفزونك﴾ ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم ﴿من الأرض﴾ من أرض مكة ﴿وإذًا لا يلبثون﴾ لا يبقون بعد إخراجك ﴿إلا﴾ زمانًا ﴿قليلاً﴾ فإن الله مهلكهم، وكان كما قال: فقد أهلكوا ببدر بعد إخراجه بقليل، وقيل معناه: ولو أخرجوك لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم، ولم يخرجوه بل هاجر بأمر ربه، وقيل: من أرض العرب، وقيل: من أرض المدينة. وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم فاجتمعوا إليه وقالوا: يا أبا القاسم، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدّسة وكانت مهاجر إبراهيم، فلو خرجت إلى الشام لأمنا بك واتبعناك، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم، فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة، وقيل: بذي الحليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازمًا على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين الله[4]، فنزلت فرجع. وقرئ*: لا يلبثون، وفي قراءة أبي: لا يلبثوا على إعمال إذا.

فإن قُلْتَ: ما وجه القراءتين؟ **قُلْتُ**: أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل وهو مرفوع لوقوعه خبر كاد، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم، وأما قراءة أبي: ففيها الجملة برأسها التي هي ﴿إذًا لا يلبثوا﴾ عطف على جملة قوله ﴿وإن كادوا ليستفزونك﴾ وقرئ* خلافك. قال:

عفت الديار خلافهم فكأنما ... بسط الشواطب بينهنّ حصيرا

أي: بعدهم، ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ يعني: أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم فسنة الله أن يهلكهم، ونصبت نصب المصدر المؤكد أي: سن الله ذلك سنة.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾.

دلكت الشمس غربت، وقيل: زالت، وروي عن النبي ﷺ: «أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بي الظهر»[5]، واشتقاقه من الدلك؛ لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس، وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر. والغسق: الظلمة وهو: وقت صلاة العشاء ﴿وقرآن الفجر﴾ صلاة الفجر سميت قرآنًا وهو القراءة: لأنها ركن، كما سميت ركوعًا وسجودًا وقنوتًا وهي: حجة على ابن علية والأصم في زعمهما أن القراءة

---

(1) قال أحمد: أمّا تقليل الكيدودة، فالذي ينبغي أن يحمل عليه، كونه الواقع في علم الله تعالى؛ لأنّ الله عزّ وجل يعلم ما لم يكن، لو كان، كيف كان يكون، فعلم تعالى أنّ الركون الذي كاد يحصل منه عليه السلام، وإن كان ما حصل أمر قليل، وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع في علمه تقديراً، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتشبيه، فإنّ ذلك لا يكون في الإخبار، ألا ترى أنه لو كان الواقع كبدودة ركون كثير، لكان تقليله خلفاً في الخبر، ولا ينكر أن الذنب يعظم بحسب فاعله، على ما ورد حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأما نقل الزمخشري عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبائح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيماً حق على كل مسلم أن يستفظعه، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفاً ذاتياً للقبيح، فلزمهم على ذلك كل فعل استقبح من العبد، استقبح = من الله تعالى، وهم غالطون في ذلك، فمعنى كون الفعل قبيحاً، أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان لله تعالى أن يفعله وهو حسن بالنسبة إليه، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسي الملك، ونهاه عن ذلك، ولا يستقبح ذلك من نفسه، بل هو منه حسن جميل، ولقد كان لمشايخه شغل باستعظام ما لزمهم من الإشراك عن استعظام غيره، مما هو توحيد محض وإيمان صرف، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم، فرآه حسناً، والله الموفق.

(2) سورة الأعراف، الآية: 38.

(3) قال الزيلعي نكره الثعلبي 2/279.

(4) لم يخرجه الزيلعي.

(5) رواه البيهقي في كتاب المعرفة الزيلعي 2/280.

ليست بركن ﴿مشهودًا﴾ يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء فهو في آخر ديوان الليل وأوّل ديوان النهار، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة، أو من حقه أن يكون مشهودًا بالجماعة الكثيرة، ويجوز أن يكون ﴿وقرآن الفجر﴾ حثًا على طول القراءة في صلاة الفجر لكونها مكثورًا عليها ليسمع الناس القرآن فيكثر الثواب، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾.

﴿ومن الليل﴾ وعليك بعض الليل ﴿فتهجد به﴾ والتهجد ترك الهجود للصلاة ونحوه: التأثم والتحرج، ويقال أيضًا في النوم بتهجد ﴿نافلة لك﴾ عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، وضع نافلة موضع تهجدًا؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد، والمعنى: أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك؛ لأنه تطوع لهم ﴿مقامًا محمودًا﴾ نصب على الظرف أي: عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقامًا محمودًا، أو ضمن يبعثك معنى يقيمك، ويجوز أن يكون حالاً بمعنى: أن يبعثك ذا مقام محمود، ومعنى المقام المحمود: المقام الذي يحمده القائم فيه وكل من رآه وعرفه وهو مطلق في كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات، وقيل: المراد الشفاعة وهي نوع واحد مما يتناوله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: مقام يحمدك فيه الأوّلون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ هو: «المقام الذي أشفع فيه لأمّتي»[1] وعن حذيفة: يجمع الناس في صعيد واحد، فلا تتكلم نفس، فأوّل مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والشرّ ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك وبك، وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت[2]. قال: فهذا قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا﴾.

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾.

قرئ: مدخل ومخرج بالضم والفتح بمعنى المصدر، ومعنى الفتح أدخلني فأدخل مدخل صدق أي: أدخلني القبر مدخل صدق إدخالاً مرضيًا على طهارة وطيب من السيئات، وأخرجني منه عند البعث إخراجًا مرضيًا ملقى بالكرامة آمنًا من السخط، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث، وقيل: نزلت حين أمر بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، وقيل: إدخاله مكة ظاهرًا عليها بالفتح، وإخراجه منها آمنًا من المشركين، وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالمًا، وقيل: إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوّة، وإخراجه منه مؤديًا لما كلفه من غير تفريط، وقيل: الطاعة، وقيل: هو عام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من أمر ومكان ﴿سلطانًا﴾ حجة تنصرني على من خالفني، أو ملكًا وعزًا قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر مظهرًا له عليه. فأجيبت دعوته بقوله: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[3] ﴿فإنّ حزب الله هم الغالبون﴾[4] ﴿ليظهره على الدين كله﴾[5] ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾[6] ووعده لينزعنّ ملك فارس والروم فيجعله له، وعنه ﷺ: «أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل الله[7] فكان شديدًا على المريب لينًا على المؤمن، وقال: لا والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابيًا جافيًا، فقال ﷺ: إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالاً شديدًا حتى فتح له فدخلها، فأعز الله به الإسلام لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير.

وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾.

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، صنم كل قوم بحيالهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال: أي رب حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك، فأوحى الله إلى البيت إني سأحدث لك نوبة جديدة، فأملاك خدودًا سجدًا يدفون إليك دفيف النسور يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجج حولك بالتلبية، ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك ثم ألقها، فجعل يأتي صنمًا صنمًا وهو ينكث بالمخصرة في عينه ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل» فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعًا، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال: «يا علي ارم به» فحمله رسول الله ﷺ حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمد ﷺ[8]، وشكاية البيت والوحي إليه تمثيل

(1) رواه أحمد في مسنده 2/478، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3137).
(2) رواه الحاكم في المستدرك 2/363 وأبو يعلى في المسند (الحديث رقم: 2899).
(3) سورة المائدة، الآية: 67.
(4) سورة المائدة، الآية: 56.
(5) سورة التوبة، الآية: 33.
(6) سورة النور، الآية: 55.
(7) رواه الثعلبي وابن مردويه (الزيلعي 2/286).
(8) قال الزيلعي: غريب ورواه النسائي في السنن الكبرى مختصرًا 2/287.

وتخييل ﴿وزهق الباطل﴾ ذهب وهلك من قولهم: زهقت نفسه إذا خرجت. والحق الإسلام والباطل الشرك ﴿كان زهوقًا﴾ كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت.

وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾.

﴿وننزل﴾ وقرئ: بالتخفيف والتشديد ﴿من القرآن﴾ من للتبيين كقوله: من الأوثان، أو للتبعيض أي: كل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيمانًا ويستصلحون به دينهم، فموقعه منهم موقع الشفاء من المرضى، وعن النبي ﷺ: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله[1]. ولا يزداد به الكافرون ﴿إلا خسارًا﴾ أي: نقصانًا لتكذيبهم به وكفرهم كقوله تعالى: ﴿فزادتهم رجسًا إلى رجسهم﴾[2].

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾.

﴿إذا أنعمنا على الإنسان﴾ الصحة والسعة ﴿أعرض﴾ عن ذكر الله كأنه مستغني عنه مستبد بنفسه ﴿ونأى بجانبه﴾ تأكيد للإعراض؛ لأنّ الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه، والنأي: بالجانب أن يلوي عنه عطفه ويوليه ظهره وأراد الاستكبار؛ لأنّ ذلك من عادة المستكبرين ﴿وإذا مسه الشر﴾ من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ﴿كان يؤسًا﴾ شديد اليأس من روح الله ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[3] وقرئ: وناء بجانبه بتقديم اللام على العين كقولهم: راء في رأي، ويجوز أن يكون من ناء بمعنى: نهض.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾.

﴿قل كل﴾ احد ﴿يعمل على شاكلته﴾ أي: على مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة من قولهم: طريق ذو شواكل وهي: الطرق التي تتشعب منه والدليل عليه قوله: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: أسد مذهبًا وطريقة.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾.

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله أي: مما استأثر بعلمه، وعن ابن أبي بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعلم الروح[4]، وقيل: هو خلق عظيم روحاني أعظم من الملك، وقيل: جبريل عليه السلام، وقيل: القرآن و ﴿من أمر ربي﴾ أي: من وحيه وكلامه ليس من كلام البشر، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم[5] ﴿وما أوتيتم﴾ الخطاب عام، وروي: أنّ رسول الله ﷺ لما قال لهم ذلك قالوا: نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه؟ فقال: بل نحن وأنتم لم نؤت من العلم إلا قليلاً، فقالوا: ما أعجب شأنك! ساعة تقول: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[6] وساعة تقول هذا[7]، فنزلت ﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾[8] وليس ما قالوه بلازم؛ لأنّ القلة والكثرة تدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافًا إلى ما فوقه بالكثرة مضافًا إلى ما تحته، فالحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة، وقيل: هو خطاب لليهود خاصة؛ لأنهم قالوا للنبي ﷺ: قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة وقد تلوت ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾[9] فقيل لهم: إن علم التوراة قليل في جنب علم الله.

وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾.

﴿لنذهبن﴾ جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط. واللام الداخلة على إن موطئة للقسم، والمعنى: إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثر، أو بقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب ﴿ثم لا تجد لك﴾ بعد الذهاب ﴿به﴾ من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظًا مستورًا ﴿إلا رحمة من ربك﴾ إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك كأن رحمته تتوكل عليه بالرد، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما، وهما: منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره، ومنته عليه في بقاء المحفوظ. وعن ابن مسعود: إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون الصلاة، وليصلين قوم ولا دين لهم، وإن هذا

---

(1) رواه الثعلبي (الزيلعي 2/288).
(2) سورة التوبة، الآية: 125.
(3) سورة يوسف، الآية: 87.
(4) رواه الواحدي في الوسيط، الزيلعي 2/289.
(5) رواه ابن هشام في السيرة 1/300 ـ 301.
(6) سورة البقرة، الآية: 269.
(7) ذكره الزيلعي 2/290.
(8) سورة لقمان، الآية: 27.
(9) سورة البقرة، الآية: 269.

القرآن تصبحون يومًا وما فيكم منه شيء، فقال رجل: كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا، ويعلمه أبناؤنا أبناءهم؟ فقال: يسري عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء، ترفع المصاحف، وينزع ما في القلوب **﴿لا يأتون﴾** جواب قسم محذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جوابًا للشرط كقوله: يقول لا غائب مالي ولا حرم. لأنّ الشرط وقع ماضيًا أي: لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ـ وفيهم العرب العاربة أرباب البيان ـ لعجزوا عن الإتيان بمثله، والعجب[1] من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة فيقال: الله قادر على خلق الأجسام، والعباد عاجزون عنه، وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثاني القديم فلا يقال للفاعل: قد عجز عنه ولا هو معجز، ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز؛ لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال إلا أن يكابروا فيقولوا: هو قادر على المحال، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾.

﴿ولقد صرفنا﴾ ردّدنا وكررنا **﴿من كل مثل﴾** من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه. والكفور الجحود.

فإن قُلْتَ: كيف جاز **﴿فأبى اكثر الناس إلا كفورًا﴾** ولم يجز ضربت إلا زيدًا؟ **قُلْتُ:** لأن أبي متأوّل بالنفي كأنه قيل: فلم يرضوا إلا كفورًا. لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الأخر والبينات ولزمتهم الحجة وغلبوا، أخذوا يتعللون باقتراح الآيات فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة فقالوا: **﴿لن نؤمن لك حتى﴾** وحتى **﴿تفجر﴾** تفتح، وقرئ: تفجر بالتخفيف **﴿من الأرض﴾** يعنون أرض مكة **﴿ينبوعًا﴾** عينًا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع، يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء **﴿كما زعمت﴾** يعنون قول الله تعالى: **﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفًا من السماء﴾**[2]. قرئ: كسفًا بسكون السين جمع كسفة كسدرة وسدر وبفتحه **﴿قبيلاً﴾** كفيلاً بما تقول شاهدًا بصحته والمعنى: أو تأتي بالله قبيلاً وبالملائكة قبلاً كقوله:

كنت منه ووالدي بريًا ... فإني وقيار بها لغريب

أو مقابلاً كالعشير بمعنى: المعاشر ونحوه: **﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾**[3] وجماعة حالاً من الملائكة.

أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾.

﴿من زخرف﴾ من ذهب **﴿في السماء﴾** في معارج السماء فحذف المضاف. يقال: رقي في السلم وفي الدرجة **﴿ولن نؤمن لرقيك﴾** ولن نؤمن لأجل رقيك **﴿حتى تنزل علينا كتابًا﴾** من السماء فيه تصديقك، عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال عبد الله بن أبي أمية: لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات إلا العناد واللجاج، ولو جاءتهم كل آية لقالوا: هذا سحر كما قال عزّ وجل: **﴿ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس﴾**[4] **﴿ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾**[5] وحين أنكروا الآية الباقية التي هي القرآن، وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه بل هي أعظم لمن يكن إلى تبصرتهم سبيل **﴿قل سبحان ربي﴾** وقرئ: قال سبحان ربي أي: قال الرسول: وسبحان ربي! تعجب من اقتراحاتهم عليه **﴿هل كنت إلا﴾** رسولاً كسائر الرسل **﴿بشرًا﴾** مثلهم، وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات، فليس أمر الآيات إليّ إنما هو إلى الله فما بالكم تتخيرنها عليّ.

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾.

أن الأولى نصب مفعول ثان لمنع، والثانية رفع فاعل له و **﴿الهدى﴾** الوحي أي: وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوّة محمد ﷺ إلا شبهة تلجلجت في صدورهم وهي: إنكارهم أن يرسل الله البشر، والهمزة في **﴿أبعث الله﴾** للإنكار،

---

(1) **قال أحمد:** ومما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف، أنه تدلس على الضعفة في مثل هذه المسألة، التي طبقت الأرض ظهوراً وشيوعاً، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة، قائمة بذات الباري تعالى، يطلق عليها قرآن، ويطلق أيضاً على أدلتها، وهي هذه الكلمات الفصيحة، والآي الكريمة قرآن، وإن المعجز عندهم الدليل لا المدلول، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق، لوجهين، أحدهما: أنه إطلاق موهم، والثاني: أن = السلف الصالح كفوا عنه، فاقتفوا آثارهم، واقتبسوا أنوارهم، وكم من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره مما لا يجوز اعتقاده، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق، ولا كرامة لمعتقد ذلك، والمتعنت بإلزامه، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

(2) سورة سبأ، الآية: 9.

(3) سورة الفرقان، الآية: 21.

(4) سورة الأنعام، الآية: 7.

(5) سورة الحجر، الآية: 14.

وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله؛ لأنّ قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله، أو إلى الأنبياء، ثم قرر ذلك بأنه ﴿لو كان في الأرض ملائكة يمشون﴾[1] على أقدامهم كما يمشي الإنس، ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب علمه ﴿مطمئنين﴾ ساكنين في الأرض قادرين ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولاً﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المراشد، فأما الإنس فما هم بهذه المثابة، إنما يرسل الملك إلى مختار منهم للنبوّة، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم.

فإن قُلْتَ: هل يجوز أن يكون ﴿بشرًا﴾ و ﴿ملكًا﴾ منصوبين على الحال من رسولاً **قُلْتُ:** وجه حسن، والمعنى له أجوب ﴿شهيدًا بيني وبينكم﴾ على أني بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتم وعاندتم ﴿إنه كان بعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيرًا﴾ عالمًا بأحوالهم فهو مجازيهم، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للكفرة، وشهيدًا تمييز أو حال.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾.

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو المهتد﴾ لانه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضلل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصارًا ﴿على وجوههم﴾ كقوله: ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾[2] وقيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»[3]. ﴿عميًا وبكمًا وصمًا﴾ كما كانوا في الدنيا لا يستبصرون، ولا ينطقون بالحق، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة كذلك لا يبصرون ما يقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا يتعلقون بما يقبل منهم ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾[4] ويجوز أن يحشروا مؤفي الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤن ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها وبلوا غيرها، فرجعت ملتهبة مستعرة كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد، وقد دلّ على ذلك بقوله: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ إلى قوله: ﴿أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا﴾.

۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۖ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾.

فإن قُلْتَ: علام عطف قوله: ﴿وجعل لهم أجلاً﴾ **قُلْتُ:** على قوله: ﴿أولم يروا﴾ لأنّ المعنى: قد علموا بدليل العقل أنّ من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس؛ لأنهم ليسوا بأشدّ خلقًا منهنّ كما قال: ﴿أأنتم أشدّ خلقًا أم السماء﴾[5] ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ وهو الموت، أو القيامة، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحودًا.

قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾.

لو حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بدّ من فعل بعدها في ﴿لو أنتم تملكون﴾ وتقديره لو تملكون تملكون فاضمر تلك إضمارًا على شريطة التفسير، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل، وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ، فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملكون تفسيره، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب، فأمّا ما يقتضيه علم البيان فهو: أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأنّ الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ونحوه قول حاتم:

لو ذات سوار لطمتني

وقول المتلمس:

ولو غير أخوالي أرادوا نقيصتي

وذلك لأنّ الفعل الأوّل لما سقط الأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر. ورحمة الله: رزقه وسائر نعمه على خلقه، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم، وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ﴿قتورًا﴾ ضيقًا بخيلاً.

فإن قُلْتَ: هل يقدّر لأمسكتم مفعول **قُلْتُ:** لا؛ لأنّ معناه: لبخلتم من قولك للبخيل ممسك.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ۖ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾.

---

(1) قال أحمد: وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدّر، وهو قول القائل، إنّ مجرّد وجود الملائكة في الأرض، يناسب إرسال الملك إليهم، فما فائدة هذه الزيادة، فيكون جوابه ما تقدّم، والله الموفق.

(2) سورة القمر، الآية: 48.

(3) رواه الترمذي في كتاب: التفسير، باب: من سورة بني إسرائيل (الحديث رقم: 3142).

(4) سورة الإسراء، الآية: 72.

(5) سورة النازعات، الآية: 27.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والحجر، والبحر، والطور الذي نتقه على بني إسرائيل، وعن الحسن: الطوفان، والسنون، ونقص الثمرات، مكان الحجر، والبحر، والطور. وعن عمر بن عبد العزيز: أنه سأل محمد بن كعب فنكر: اللسان، والطمس، فقال له عمر: كيف يكون الفقيه إلا هكذا. أخرج يا غلام ذلك الجراب، فأخرجه فنفضه فإذا بيض مكسور بنصفين وجوز مكسور وفوم وحمص وعدس كلها حجارة. وعن صفوان بن عسال أنّ بعض اليهود سأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: «أوحى الله إلى موسى أن قل لبني إسرائيل: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقنفوا محصنة، ولا تفرّوا من الزحف؛ وأنتم يا يهود خاصة لا تعدوا في السبت»[1]. **﴿فاسئل بني إسرائيل﴾** فقلنا له: سل بني إسرائيل أي: سلهم من فرعون؟ وقل له: أرسل معي بني إسرائيل، أو سلهم عن إيمانهم، وعن حال دينهم، أو سلهم أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك، وتدلّ عليه قراءة رسول الله ﷺ: «فسأل بني إسرائيل» على لفظ الماضي بغير همز وهي لغة قريش، وقيل: فسل يا رسول الله المؤمنين من بني إسرائيل، وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه، عن الآيات ليزدادوا يقينًا وطمأنينة قلب؛ لأنّ الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت كقول إبراهيم: **﴿ولكن ليطمئنّ قلبي﴾**[2].

فإن قُلْتَ: بم تعلق **﴿إذ جاءهم﴾**؟ **قُلْتُ:** أمّا على الوجه الأوّل: فبالقول المحذوف أي: فقلنا له سلهم حين جاءهم، أو بسأل في القراءة الثانية، وأمّا على الأخير: فبآتينا، أو بإضمار اذكر، أو يخبروك ومعنى: إذ جاءهم إذ جاء آباءهم **﴿مسحورًا﴾** سحرت فخولط عقلك.

﴿لقد علمت﴾ يا فرعون **﴿ما أنزل هؤلاء﴾** الآيات إلا الله عز وجل **﴿بصائر﴾** بينات مكشوفات، ولكنك معاند مكابر ونحوه: **﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا﴾**[3] وقرئ: علمت بالضم على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني بل أنا عالم بصحة الأمر. وأنّ هذه الآيات منزلها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه كأنه قال إن ظننتني مسحورًا فأنا أظنك **﴿مثبورًا﴾** هالكًا، وظني أصح من ظنك؛ لأنّ له أمارة ظاهرة وهي إنكارك ما عرفت صحته ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأمّا ظنك فكذب بحت؛ لأنّ قولك مع علمك بصحة أمري **﴿إني لأظنك مسحورًا﴾** قول كذاب، وقال الفرّاء مبثورًا: مصروفًا عن الخير مطبوعًا على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا أي: ما منعك وصرفك، وقرأ أبيّ بن كعب: وإن أخالك يا فرعون لمثبورًا على إن المخففة واللام الفارقة.

فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾.

﴿فأراد﴾ فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال، فحاق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قبطه **﴿اسكنوا الأرض﴾** التي أراد فرعون أن يستفزكم منها **﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾** يعني: قيام الساعة **﴿جئنا بكم لفيفًا﴾** جمعًا مختلطين إياكم وإياهم ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم، واللفيف الجماعات من قبائل شتى.

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾.

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ وما نزل القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل إلا ملتبسًا بالحق والحكمة لاشتماله على الهداية إلى كل خير، أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق محفوظًا بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظًا بهم من تخليط الشياطين **﴿وما أرسلناك﴾** إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء من إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾.

﴿وقرآنًا﴾ منصوب بفعل يفسره **﴿فرقناه﴾** وقرأ أبيّ: فرّقناه بالتشديد أي: جعلنا نزوله مفرقًا منجمًا، وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأه مشدّدًا وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة يعني: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب **﴿على مكث﴾** بالفتح والضم على مهل وتؤدة وتثبت **﴿ونزلناه تنزيلًا﴾** على حسب الحوادث.

قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾.

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم، وأن لا يكترث بهم وبإيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، (الحديث رقم: 3144).

(2) سورة البقرة، الآية: 260.

(3) سورة النمل، الآية: 14.

يصدّقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك. فإن خيرًا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع قد آمنوا به وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربيّ الموعود في كتبهم، فإذا تلي عليهم خرّوا سجدًا وسبّحوا الله تعظيمًا لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشّر به من بعثة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً، ويزيدهم خشوعًا﴾ أي: يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين.

فإن قُلْتَ: ﴿إنّ الذين أوتوا العلم من قبله﴾ تعليل لماذا؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون تعليلاً لقوله: ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، وتطييب نفسه كأنه قيل: تسل عن إيمان الجهلة بإيمان العلماء، وعلى الأوّل: إن لم تؤمنوا به لقد آمن به من هو خير منكم.

فإن قُلْتَ: ما معنى الخرور للذقن؟ **قُلْتُ:** السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين؛ لأنّ الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن.

فإن قُلْتَ: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خرّ على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال: فخرّ صريعًا لليدين وللفم. **قُلْتُ:** معناه: جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به؛ لأنّ اللام للاختصاص.

فإن قُلْتَ: لم كرّر ﴿يخرّون للاذقان﴾؟ **قُلْتُ:** لاختلاف الحالين وهما: خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمٰن، فقال: إنه ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰهًا آخر. وقيل: إن أهل الكتاب قالوا: إنك لتقل ذكر الرحمٰن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فنزلت. والدعاء بمعنى: التسمية لا بمعنى: النداء وهو يتعدّى إلى مفعولين تقول: دعوته زيدًا، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال: دعوت زيدًا، والله والرحمٰن المراد بهما الاسم لا المسمى، وأو للتخيير فمعنى ﴿ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكر وإمّا هذا وإمّا هذا. والتنوين في ﴿أيًا﴾ عوض من المضاف إليه و ﴿ما﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في أيّ آي: أي هذين الاسمين سميتم ونكرتم ﴿فله الأسماء الحسنى﴾ والضمير في فله ليس براجع إلى أحد الاسمين المذكورين ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى؛ لأنّ التسمية للذات لا للاسم، والمعنى: أيًامًا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله: فله الأسماء الحسنى؛ لأنه إذا حسنت أسماؤه كلها حسن هذان الاسمان لأنهما منها، ومعنى كونهما أحسن الأسماء: أنها مستقلة بمعاني التحميد والتقديس والتعظيم ﴿بصلاتك﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف لأنه لا يلبس، من قبل أن الجهر والمخافتة صفتان تعتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأنكار، وكان رسول الله ﷺ يرفع صوته بقراءته، فإذا سمعها المشركون لغوًا وسبوًا، فأمر بأن يخفض من صوته، والمعنى: ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ولا تخافت﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين﴾ الجهر والمخافتة ﴿سبيلاً﴾ وسطًا، وروي أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر رضي الله عنه يرفع صوته ويقول: أزجر الشيطان، وأوقظ الوسنان، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً[1]، وقيل معناه: ولا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، وقيل: بصلاتك بدعائك، وذهب قوم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية﴾[2] وابتغاء السبيل مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة.

وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾.

﴿ولي من الذل﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحدًا من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته.

فإن قُلْتَ[3]: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد **قُلْتُ:** لأنّ من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد، وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية[4].

عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية». رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

---

(1) رواه أبو داود في كتاب: الصلاة، باب: في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل (الحديث رقم: 1329) والترمذي في كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في قراءة الليل (الحديث رقم: 447).

(2) سورة الأعراف، الآية: 55.

(3) قال أحمد: وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم = الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ وقد رددت هذا الوجه فيما تقدّم، بأنّ هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد، ولا تناسبها، فإنك لو قلت: ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون، لم يكن مناسباً، والله أعلم.

(4) رواه ابن أبي شيبة 1/348 كتاب الصلوات.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الكهف مكية

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾.

لقن الله عباده وفقههم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ولم يجعل له عوجًا﴾ ولم يجعل له شيئًا من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد: نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه.

فإن قُلْتَ: بم انتصب ﴿قيمًا﴾؟ قُلْتُ: الأحسن أن ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من الكتاب؛ لأنّ قوله: ولم يجعل معطوف على أنزل فهو داخل في حيز الصلة فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وتقديره: ولم يجعل له عوجًا جعله قيمًا؛ لأنه إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة.

فإن قُلْتَ: ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي أحدهما غنى عن الآخر؟ قُلْتُ: فائدته التأكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح، وقيل: قيمًا على سائر الكتب مصدقًا لها شاهدًا بصحتها، وقيل: قيمًا بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع، وقرئ: قيمًا. أنذر متعد إلى مفعولين كقوله: ﴿إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا﴾[1] فاقتصر على أحدهما وأصله ﴿لينذر﴾ الذين كفروا ﴿بأسًا شديدًا﴾ والبأس من قوله: ﴿بعذاب بئيس﴾[2] وقد بؤس العذاب وبؤس الرجل بأسًا وبآسة ﴿من لدنه﴾ صادرًا من عنده، وقرئ: من لدنه بسكون الدال مع إشمام الضمة وكسر النون ﴿ويبشر﴾ بالتخفيف والتثقيل.

فإن قُلْتَ: لم اقتصر على أحد مفعولي أنذر؟ قُلْتُ: قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه فوجب الاقتصار عليه، والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدًا﴾ متعلقًا بالمنذرين من غير ذكر المنذر به كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿أنّ لهم أجرًا حسنًا﴾ استغناء بتقدم ذكره. والأجر الحسن الجنة ﴿ما لهم به من علم﴾ أي: بالولد أو باتخاذه يعني: أنّ قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للآباء، وقد اشتملته آباؤهم من الشيطان وتسويله.

فإن قُلْتَ[3]: اتخاذ الله ولدًا في نفسه محال فكيف قيل: ﴿ما لهم به من علم﴾؟ قُلْتُ: معناه ما لهم به من علم؛ لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء للعلم بالشيء، إمّا للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به. قرئ: كبرت كلمة وكلمة بالنصب على التمييز والرفع الى الفاعلية، والنصب أقوى وأبلغ وفيه معنى: التعجب، كأنه قيل: ما أكبرها كلمة و ﴿تخرج من أفواههم﴾ صفة للكلمة تفيد استعظامًا لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم، فإن كثيرًا مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتمالكون أن يتفوّهوا به ويطلقوا به ألسنتهم، بل يكظمون عليه تشوّرًا من إظهاره، فكيف بمثل هذا المنكر؟ وقرئ: كبرت بسكون الباء مع إشمام الضمة.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في ﴿كبرت﴾ قُلْتُ: إلى قولهم: ﴿اتخذ الله ولدًا﴾ وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها.

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم، برجل فارقه أحبته وأعزته، فهو يتساقط حسرات على آثارهم، وينخع نفسه وجدًا عليهم وتلهفًا على فراقهم. وقرئ: باخع نفسك على الأصل وعلى الإضافة أي: قاتلها ومهلكها، وهو للاستقبال فيمن قرأ إن لم يؤمنوا، أو للمضي فيمن قرأ إن لم يؤمنوا بمعنى: لأن لم يؤمنوا ﴿بهذا الحديث﴾ بالقرآن ﴿أسفًا﴾ مفعول له أي: لفرط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً، والأسف المبالغة في الحزن والغضب يقال: رجل أسف وأسيف.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾.

﴿ما على الأرض﴾ يعني: ما يصلح أن يكون زينة لها

---

(1) سورة النبأ، الآية: 40.

(2) سورة الأعراف، الآية: 165.

(3) قال أحمد: قد مضى له في قوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أنّ ذلك وارد على سبيل التهكم، وإلا فلا سلطان على الشرك، حتى ينزل ونظيره.

= ولا ترى الضب بها ينجحر

وقد قدّمت حينئذ أنّ الكلام، وارد على سبيل الحقيقة والأصل، وأن نفي إنزال السلطان، تارة يكون لاستحالة إنزاله ووجوده، وتارة يكون، لأنه لم يقع، وإن كان ممكناً، والله أعلم.